الأمة في القرآن

للشيخ مناع خليل القطان

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : «وأما الهمزة والميم فأصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب ، وهي : الأصل ، والمرجع ، والجماعة ، والدين . وهذه الأربعة متقاربة» .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم فاننا نجد وجوهاً متعددة في القرآن لاستعمال لفظ «الأمة» .

تعريف :

١ـ: الأمة :

الجماعة التي يجمعها زمان واحد في أي عصر من العصور وأهل كل عصر بالنسبة الى الرسول الذي بعث فيهم أمته ، وهم أمة الدعوة ، فأمة كل نبي من أرسل اليهم ، آمن منهم من آمن وكفر من كفر . وقد ورد هذا المعنى في القرآن كثيراً : ومن ذلك :

١ـ ما أخبر الله تعالى به من شهادة كل نبي على أمته يوم القيامة بما كان منهم يوم القيامة وشهادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليهم جميعاً ، فان الكتاب الذي بعث به هو الكتاب المصدق المهيمن على الكتب السماوية كلها ، يقول تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (١) وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إقرأ علي» فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : «نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال : «حسبك الآن» فان عيناه تذرفان» .

٢ ـ وكل أمة من الأمم تعرض على الله يوم القيامة ، ومعها صحائف أعمالها ، ويأتي رسولها ليشهد عليهم ، وعندئذ يقضي بينهم بالعدل الالهي ، يقول تعالى : (ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) (٢) . وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كانت آخر الأمم زماناً فانها تحرز قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه ، فتكون أول الأمم يوم القيامة يقضى بينهم ، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق» .

٣ ـ وواسى الله تعالى رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم وقد كذبه قومه بأن هذا شأن الأمم السابقة التي كذبت رسلها فأوقع الله بها بأسه ونقمته ، فله بهم أسوة ، حتى يظل ثابتاً في دعوته الى توحيد الله تعالى معتمداً عليه سبحانه في أموره كلها . راجياً منه وحده الثواب والأجر ، يقول تعالى : (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) (٣) .

بعث الرسل :

٤ ـ ولقد كان من فضل الله على البشرية أنه لم يدعها تهيم في حياتها دون هداية منه ، بل امتن عليها في عصور التاريخ . وبعث في كل أمة رسولا يدعوها الى عبادة الله وحده والخضوع له في شؤون الحياة كلها قصداً وعملا ، عقيدة وشريعة ، واجتناب ما سواممن الطواغيت ، طاغوت الوثن والحجر والشجر . وطاغوت النحلة والمذهب . وطاغوت الهوى والمال والجاه والسلطان . وطاغوت الحكم بغير ما أنزل الله . وسائر ما يكون من ضروب الشرك . وبهذا سقطت الأعذار ولزمت الحجة بمشيئة الله الشرعية لهدايتهم ، فكان منهم من اهتدى ، ومنهم من ضل وكانت عاقبته عبرة للمكذبين ، يقول تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (٤). فان أمراً من الأمور لا يخرج عن مشيئة الله الكونية ، ولكنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر .

٥ ـ ويؤكد الله تعالى شهادة كل نبي على أمته يوم القيامة ، حيث لا يؤذن لهم في الاعتذار بعد أن لزمتهم الحجة . ولا في استرضاء الله تعالى فان الآخرة ليست بدار عمل . فيقول سبحانه (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) (٥) .

٦ ـ ويأتي المعنى الذي جاء في آية النساء (٦) من شهادة كل نبي على أمته يوم القيامة وشهادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عليهم جميعاً مقروناً بعظمة القرآن الكريم الذي بين الله فيه كل شيء من أمور الدين والدنيا ، بالنص على بعضها ، أو الأمر باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته . فان سنته بيان للكتاب ، أو الحث على اتباع سبيل المؤمنين فانهم لا يجتمعون على ضلالة ، أو التنبيه على طرق الاستنباط بالقياس والاجتهاد ، حيث كانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد

● لم يبعث الله البشرية تهيم على وجهها دون هداية ، بعث الرسل لدعوتها لعبادة الله واجتناب الطاغوت...
● لاصلاح للإنسانية في دينها ودنياها ومعاشها ومعادها إلا بهذا القرآن.

مستندة الى تبيان الكتاب ، فمن ثم كان القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ، يقول تعالى : (ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٧) فلا صلاح للانسانيةفي دينها ودنياها ومعاشها ومعادهاإلا بهذا القرآن .

من مشاهد القيامة :

٧ ـ ويخبر الله عن حشر الظالمين المكذبين من كل أمة يوم القيامة ، فما من أمة إلا ومنها فوج مكذب ، وأن هؤلاء المكذبين يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار ، فيقول سبحانه : (ويوم نحشر كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) (٨) .

وتتابع الآيات بيان هذا الموقف بسؤالهم تبكيتاً وتقريعاً بما يبهتهم ويشغلهم عن النطق والاعتذار حين يقع عليهم العذاب الموعود .

٨ ـ ولم تخل أمة من الأمم في عصر من العصور دون أن يرسل الله اليها رسولا يحمل اليها رسالة الحق بشارة للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، وتظل آثار رسالته حتى اذا أوشكت أن تندرس أو اندرست أرسل رسولا آخر ، حتى أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وختم به النبيين . قال تعالى : (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (٩) .

٩ ـ ويأتي مشهد الأمم يوم القيامة في سورة الجاثية ، وقد جثت كل أمة على ركبها من الهول والشدة ، ودعيت الى صحائف أعمالها التي تنطق عليها بالحق ، ويقال لها : هذا يوم الجزاء على الأعمال خيرها وشرها . يقول تعالى : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون) (١٠) .

معنى الأمة في القرآن

الشرعة والطريقة :

٢ـ الأمة : الشرعة والدين والطريقة حقاً كان هذا أو باطلا .

قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) (١١) .

وللعلماء في تفسير هذه الآية معنيان :

الأول : كان الناس على الهدى ودين الحق جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين ، وقد حذف «فاختلفوا» لدلالة قوله : (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) عليه ، وهي قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) فكان أول من بعث بعد اختلافهم نوح عليه السلام .

الثاني : كان الناس أمة واحدة ، أي كفاراً ، فبعث الله النبيين ، فاختلفوا عليهم ، فان ظاهر عطف (فبعث الله النبيين) على ما قبله يدل على الناس الذين كانوا قبل بعثة النبيين كفاراً .

والمعنى الأول هو الراجح ، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وسياق الآية يدل على هذا المعنى ، وأن الله أنزل مع النبيين الكتاب بالحق للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بعد الاتفاق ، وأن الاختلاف كان من الذين أوتوا الكتاب المنزل لازالة الاختلاف حسداً بينهم وظلماً ، فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلفوا فيه .

والآية تحتمل المعنيين ولذا كان لفظ «أمة» فيها بمعنى النحلة والطريقة مطلقاً ، إيماناً أو كفراً .

الدين الحق :

٣ ـ : الأمة : الدين الحق ، والجماعة الموحدة المؤمنة المهتدية في أي عصر من العصور عبر القرون والأجيال ، وقد ورد هذا المعنى في كثير من الآيات :

١ ـ كانت العرب تفخر بأنسابها وأحسابها وأمجاد آبائها ، كما يفتخر بنو اسرائيل بأنهم سلالة الأنبياء ، وهؤلاء وأولئك لا يذعنون لدين الله ، فتوجه اليهم الخطاب الانكاري لدعواهم ، إذ لم يشهدوا ما كان بين يعقوب وبنيه . وما أقربه بنوه من توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له خضوعاً وطاعة ، فان الاسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١٢) ثم أشار تعالى الى ابراهيم والأنبياء من ذريته الموحدين ، وبين أنهم أمة مضت بما كانت عليه من خير ، ولا يجدي الانتساب اليها ما لم ينهج اللاحقون نهج السابقين في صالح العمل ، فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، يقول تعالى : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) (١٣) .

٢ ـ وفي موكب النبوة بعصور التاريخ شهد العالم صفوة البشرية من المهتدين أتباع الأنبياء والمرسلين ، وتبوأت أمتنا في هذا الموكب ذروة الخير ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وإيماناً بالله . قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١٤) . قال الأخفش : يريد أهل أمة . أي خير أهل دين ، وأنشد النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

٣ ـ وقد أنزل الله الى رسولنا صلى الله عليه وسلم القرآن بالحق مصدقاً للكتب السماوية المنزلة من قبل ، ورقيباً عليها وشهيداً على ما فيها من الحق ، حيث تكفل سبحانه بحفظه .

● ما من أمة إلا ومنها فوج مكذب ، وإن لهؤلاء المكذبين يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار .

● الأمة الذين الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم والجماعة التي آمنت به ، فهم أمة الإجابة ..

وكتاب هذا شأنه يكون التحاكم اليه تحاكماً الى ما أنزل الله فيه وما أنزل في الكتب الأخرى مما لم ينسخ ، فلا غرو أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحكم به بين الناس ، وينهى عن اتباع أهوائهم منصرفاً عما جاءه من الحق ، وقد تفاوت الناس في فترات التاريخ بما كان لكلٍّ من شريعة وطريق واضح في الدين . ولو شاء سبحانه لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها ، ولكنه شرع شرائع مختلفة اختباراً لعباده ، أيعملون بها مذعنين معتقدين أن اختلافها حسب الأحوال والأوقات من مقتضيات الحكمة الالهية أم يتتبعون الشبه ويتنكبون طريق العمل ؟ فاستبقوا الخيرات وبادروا الى اتباع الشريعة المصدقة ، قبل أن يكون المعاد والجزاء . يقول تعالى : (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) (١٥) .

٤ ـ ولقد عاش الناس بعد آدم مدة طويلة حنفاء لله أمة واحدة على دين واحد هو الاسلام ، ثم وقع الاختلاف بينهم واتخذوا من دون الله آلهة ، فبعث الله الرسل ، ولولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وأن يؤجل الحساب الى يوم القيامة لقضى بينهم عاجلا فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) (١٦) .

٥ ـ وبين الله أنه لو شاء لجعل الناس على ملة واحدة هي ملة الاسلام ولكنه مكنهم من الاختيار الذي هو مناط التكليف الشرعي فاختار بعضهم الهدى وبعضهم الضلال فاختلفوا ، ولايزالون مختلفين إلا من رحمهم الله فهداهم ، واعتصموا بالدين الحق . قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك) (١٧) .

٦ ـ وجاء هذا المعنى في آية النحل مع بيان ما يكون فيه الاختلاف بالنص على الهدى والضلال ، وأن هذا وذاك يكون بمشيئة الله ، ثم يكون السؤال يوم القيامة للجزاء على ما كان من عمل ، يقول تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون)(١٨)

٧ ـ وفي كل دين من الأديان التي بعث الله بها رسله شرع الله لأتباعه إراقة الدم تقرباً اليه ، حتى يذكر اسم الله تعالى عند ذبح الأنعام اعترافاً بنعمته تعالى أن سخرها لعباده ، وهذا يعني وحدانية الاله المعبود وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، فليخلص الناس وجهتهم لله الواحد ، وليستبشروا بما يكون منهم من خضوع وطاعة ، قال تعالى : (ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين) (١٩) .

وقال : (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه) (٢٠) .

٨ ـ وفي معنى آية المائدة (٤٨) وآية هود (١١٨) وآية النحل (٩٣) جاء قول الله تعالى : (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير) (٢١) .

● الإسلام ملة الأنبياء قاطبة .. وإن تنوعت شرائعهم .

أمة الإجابة :

٤ ـ : الأمة : الدين الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، والجماعة التي آمنت به ، فهم أمة إجابة . وجاء هذا المعنى الخاص في بعض الآيات :

١ ـ لقد بنى ابراهيم عليه السلام مع ولده اسماعيل البيت الحرام . وتوجها الى الله تعالى بالدعاء . فكان من دعائهما أن يكونا مخلصين له تعالى . وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبصرهما بمناسك الحج ، وأن يتوب عليهما ، وأن يبعث في هذه الأمة المسلمة رسولا منها . واستجاب الله هذا الدعاء في أمتنا وبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول تعالى : (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٢٢) .

مناع خليل القطان
مدير الدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض

● للبحث صلة

(١) النساء : ٤١
(٢) يونس : ٤٧
(٣) الرعد : ٣٠
(٤) النحل : ٣٦
(٥) النحل : ٨٤
(٦) النساء : ٤١
(٧) النحل : ٨٩
(٨) : النمل : ٨٣
(٩) فاطر : ٢٤
(١٠) الجاثية : ٢٨
(١١) البقرة : ٢١٣
(١٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد
(١٣) البقرة : ١٣٣ ـ ١٣٤
(١٤) آل عمران : ١١٠
(١٥) المائدة : ٤٨
(١٦) يونس : ١٩
(١٧) هود : ١١٨ ـ ١١٩
(١٨) النحل : ٩٣
(١٩) الحج : ٣٤
(٢٠) الحج : ٦٧
(٢١) الشورى : ٨
(٢٢) البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩